

## الباب الرابع

### عصور التاريخ

حدودها الزمنية وأهم سماتها الحضارية

وتأثير ذلك على المنهج

- في استمرارية التاريخ
- العصور القديمة.
- بعض الأحداث الهامة في التاريخ القديم.
- العصور الوسطى.
- بعض الأحداث الهامة في التاريخ الوسيط.
- التاريخ الحديث.
- من أهم الأحداث والسمات الحضارية للتاريخ الحديث.
- التاريخ علم حي.
- المناطق بلا تاريخ؟!.
- العصر والمنهج.

obeykandi.com

حاول المؤرخون وضع علامات على مسيرة الزمن، على نحو ما نضع علامات على الطريق الطويل لتبيان المناطق الحضرية الهامة أو للدلالة على المسافة التي انصرمت، لكن هذه العلامات على الطريق لا تعني انقطاعه، فالطريق منساب مستمر، وهذه مجرد علامات. وإذا كان وضع العلامات على طول الطريق أمراً واضحاً لأنه مادي - أي الطريق والعلامة، فإن تقسيم مسيرة الزمن أو مسيرة التاريخ أمر صعب لأن مسيرة الزمن أمر معنوي. ولأن الانتقال من عصر إلى عصر أو من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى أمر لا يتسم بالفجأة وإنما يتم هذا التغير هينا لينا وتديداً.

ومع هذا فإن تقسيم التاريخ إلى عصور أمر لازم وضروري أو لنقل إنه مسألة لا بد منها لأغراض عملية إذ من الصعب أو المستحيل أن يتخصص الباحث أو المؤرخ في التاريخ كله، كما أن لكل مرحلة سماتها الخاصة ولونها الحضاري، بل إن لكل مرحلة أو عصر تاريخي أدواته البحثية المتميزة نوعاً ما عن الأدوات البحثية للعصور الأخرى. لكل تلك الأسباب كان حتماً أن يفكر الباحثون في تقسيم التاريخ إلى عصور.

ومع هذا التقسيم يجد الباحث في مرحلة تاريخية أو عصر تاريخي نفسه مضطراً في كثير من الأحيان للرجوع إلى مصادر المرحلة السابقة أو العصر السابق لتتبع جذور ظاهرة أو معرفة ظروف نشأتها، فمثلاً لكي نفهم نظام الضرائب في العصر الحاضر لا بد من الرجوع إلى أصولها في الدولة الإسلامية وفي كتب الخراج.. ولكي نفهم نظام انتقال الملكية العقارية في العصر الحديث في أوروبا لا بد من الرجوع إلى أصول هذا النظام وصوره في العصر الإقطاعي في القرن الثالث عشر للميلاد...<sup>(١)</sup>

لقد بدأت العصور التاريخية منذ أن عرف الإنسان الكتابة وكان هذا من حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وماتزال هذه البداية قابلة لتمتد صعبداً في الزمن كلما نمت أساليب المعرفة

(١) طرخان، إبراهيم طي : مدخل إلى علم التاريخ. مذكرة مطبوعة على الاستئصال ص ٤٢.

التاريخية وعاونتها الأساليب المنبثقة عن التطور العلمي. فواقع الأمر أن تقسيم التاريخ البشري قسامين كبيرين هما العصور التاريخية وعصور ما قبل التاريخ لا يعتمد فقط على اتخاذ معرفة الإنسان الكتابة كحد زمني للفصل بين الحقبين، وإنما يعتمد بالإضافة لذلك على أن كم المعلومات المتوفرة لدينا عن عصور ما قبل التاريخ قليل لا يتيح لنا صياغة عامة للحياة والحضارة في ذلك العصر. فإذا ما تطور العلم التكنولوجي وقد أصبح من العلوم المساعدة للتاريخ - خاصة التاريخ القديم - وما قبل التاريخ باستخدام الكربون المشع، في تحديد عمر الأثر وما إلى ذلك، نقول إذا ما تطورت أساليب البحث التاريخي على النحو المشار إليه وأصبح في إمكاننا أن نحصل على تفاصيل ثرة ومعلومات وافرة عن هذه الحقب القديمة، وقتها سيتمتد العصر التاريخي صعباً في الزمن وقد يبدأ من ٤٠٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك. أما في ظل المعلومات المتوفرة الآن فان المؤرخين يميلون إلى تقسيم العصور التاريخية إلى ثلاثة، وإن اختلفوا قليلاً في تحديد بداياتها ونهايات:

١ - العصور القديمة أو التاريخ القديم، ويبدأ تقريباً من ٣٠٠٠ ق.م. حتى ٤٧٦ للميلاد، ذلك أن القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية قد سقط في هذا العام على أيدي البرابرة، وهناك من يفضل جعل سنة ٣٩٥ للميلاد حداً زمنياً تنتهي عنده العصور القديمة وهو العام الذي انقسمت فيه الامبراطورية الرومانية إلى شرقية عاصمتها القسطنطينية<sup>(١)</sup> وغربية عاصمتها رافنا في الشمال الشرقي لإيطاليا<sup>(٢)</sup>. ولا يختلف الوضع كثيراً في منطقتنا العربية والإسلامية فسنة ٥٧١ هـ هي نهاية التاريخ العربي القديم باعتبارها سنة ولادة الرسول محمد عليه السلام أي أن نهاية التاريخ العربي القديم لم تتأخر إلا أقل من مائة سنة بالنسبة لنهاية العصر التاريخي القديم في أوروبا.

(١) ظلت الامبراطورية الرومانية الشرقية التي برزت بالبيزنطية بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية بأكثر من ألف عام ثم انتهت على يد الفاتح العثماني محمد الفاتح بسقوط القسطنطينية ١٤٥٣م.

(٢) تم إحياء هذه الامبراطورية الرومانية الغربية بعد ذلك في العصور الوسطى بتتويج شارلمان امبراطوراً على روما سنة ٨٠٠م. انظر: دالفيغ، هـ. و: شارلمان. ترجمة الدكتور السيد الباز العريضي ص ١٦٧ - ١٨٠.

وقد شهدت العصور القديمة حضارات زاهرة فنذكر منها<sup>(١)</sup>

(١) الحضارة السومرية (من ٣٦٠٠ ق.م إلى ٢٢٥٧ ق.م تقريبا) وحققت هذه الحضارة ازدهارها في العراق القديم «ميزوبوتاميا» حوالي سنة ٢١٠٠ ق.م. وبدأ المؤرخون في تسجيل وقائع تاريخهم، وقد اكتشف الباحثون وجود بعض الكتابات السومرية الأدبية تسبق تأليف الإلياذة بحوالي ألف سنة.

(ب) ولقد انتقلت الحضارة السومرية إلى بابل في الحوض الأدنى لميزوبوتاميا (العراق القديم) واستمرت هذه الحضارة البابلية إلى سنة ٦٢٩ قبل الميلاد، وقدمت هذه الحضارة للبشرية تشريعات حمورابي الشهيرة.

(ج) أما الحضارة الآشورية فقد عاصرت الحضارة البابلية، وإذا كانت الحضارة البابلية قد قدمت للبشرية إنجازات رائعة في مجال التشريع، فإن آشور قد طورت أساليب الكتابة، ولقد قام آشورينينال ملك آشور Assyria (٦٢٦ ق.م) بإنشاء كثير من المكتبات منها مكتبة نينوى Nineveh الشهيرة.<sup>(٢)</sup>

(د) الحضارة المصرية القديمة: انتعشت هذه الحضارة في وقت مزامن لحضارات ميزوبوتاميا (العراق القديم) وأقدم الكتابات المصرية المعروفة تعود لسنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، على أن الحضارة المصرية أكثر إيفالا في التاريخ من ٣٠٠٠ قبل الميلاد إذ أن من أقدم الأسانيد التاريخية التي نعرفها الآن والتي تؤكد ذلك رأس نبوس حجري Mace-head ينسب لملك يسميه الأثاريون الملك العقرب ذلك أن اسمه كان يكتب باللغة المصرية القديمة على شكل عقرب، ومينا موحد مصر يرجعه المؤرخون إلى فترة تعود قديما من ٣٢٠٠ قبل الميلاد، إلى ٣١٠٠ قبل الميلاد،

(١) يمكن معرفة إلمامة من هذه الحضارات من أي كتاب من كتب التاريخ القديم وإن كنا قد اعتمدنا على عدة مراجع لتلورها بين أيدينا من كتابه هذا الفصل ومنها:

- مايرز، ج. ل. لجر التاريخ. ترجمة طي عزت الأنصاري. مراجعة الدكتور عبد العزيز كامل. القاهرة، مركز الشرق الأوسط، ١٩٦٢.  
- الفصل الأول من كتاب جين كي جيتس: دليل القارئ والباحث من استخدام الكتب والمكتبات. ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ الكويح دار البحوث العلمية، ١٩٧٨. والفصل المذكور من تاريخ الكتب والمكتبات عبر العصور.  
- طي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، عام ١٩٧٧.  
(٢) من مادة الكتابة لديهم وطبيعة الخط المسماري أو الإسفنجي أنظر ما كتبناه من القند المادي للوثائق في هذا الكتاب.

وكانت حاضرة مصر على أيام مينا هي طيبة إلى الغرب من جرجا وهي مدينة في صعيد مصر، كما كانت أبينوس هي العاصمة الليبية. وعلى أيام مينا أيضا تم تشييد منوهر Menoher التي عرفها الإغريق باسم ممفيس وعرّفها العرب باسم منف. ومنوهر أو ممفيس أو منف أسست عند رأس مثلث الدلتا بين الوجه البحري والوجه القبلي أو صعيد مصر واتخذها ملوك الأسرة الثالثة حاضرة أو عاصمة لهم واستمرت منف عاصمة حتى سنة ٢٢٦٠ قبل الميلاد وهذا لم يبلغ دور طيبة فقد ظلت مدينة هامة.

(هـ) بعد حوالي ١٢٠٠ سنة قبل الميلاد كان الفينيقيون سادة البحر المتوسط وفينيقيا في التاريخ القديم هي الشريط الساحلي الضيق الذي يبلغ طوله ١٠٠ ميل وعرضه عشرة أميال، والذي يقع بين سوريا الحالية وساحل البحر المتوسط، ولقد كانوا رجال بحر وتجارا من الطراز الأول.

(و) الحضارة الصينية : عرف الصينيون الكتابة في الألف الثالثة قبل الميلاد وقد شهدت الحضارة الصينية كثيرا من المفكرين والفنانين لكن أشهرهم هو كونفوشيوس المصلح الكبير الذي لم يدع أن وحيا يهبط عليه من السماء ولكنه وصف نفسه بالمصلح. ففي القرن الخامس قبل الميلاد ولع كونفوشيوس بالتأمل في نظم الحكم وإصلاح حال الرعية وراح يدعو حكام الصين لاعتناق مبادئه لكن واحداً منهم لم يرحب بذلك فعزف كونفوشيوس عن مجال الحكم والسياسة وأسس مدرسة وكان كونفوشيوس مبشرا بنظرية السلطة المطلقة العادلة. ولقد أثرت قوانين كونفوشيوس في تاريخ الصين حتى بعد موته ويشير إليه الصينيون بالحكيم.

(ز) الحضارة اليونانية: في بداية الألف الثانية قبل الميلاد كانت كريت Crete مركزا لحضارة متطورة، وانتشرت هذه الحضارة في بلاد اليونان. وقبل نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد كانت هذه الحضارة تعم منطقة بحر ايجه Aegean Area ولقد كان القرن الخامس قبل الميلاد هو العصر الذهبي للحضارة اليونانية، وهو الفترة التي تميزت بالآداب الخلاقة كتراجيديات سوفوكليس وإيخيليس وبيدز Sophocles, Aechylus, Euripides وتاريخ هيرودوت Herodotus وأشعار بندار Pindar وتاريخ ثوسيديدس Thucydides وكوميديات أرسطوفان وفلسفة سقراط. وهذه الفترة التي تميزت بالإنتاج الأدبي والفكري الرافعي امتدت تأثيراتها إلى القرن الرابع بل والثالث

قبل الميلاد، وتمثل هذا التأثير في أعمال أفلاطون Plato وارسطو Aristotle، كما كان هذا التأثير أيضا في مجال الدراما والشعر والخطابة Oration والموسيقى.

والفترة الهيلينستية Hellenistic هي الفترة التي تبدأ من وفاة الاسكندر ٣٢٢ ق.م. حتى الغزو الروماني وشهدت هذه الحقبة استمرار النشاط الأدبي الذي كان سائدا في القرن السابق مع تركيز خاص على المعارف العلمية.

(ح) الحضارة العربية القديمة (السابقة على الإسلام) وقد اصطلح الباحثون على تسميتها بالجاهلية، والجاهلية قد تكون مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم، وقد تعني عصر السفه والغضب والحقد وعدم الانضباط، ومن الناحية التاريخية فإن عصر الجاهلية يطلق اصطلاحا على تاريخ الجزيرة العربية فقط قبل ظهور الإسلام.

وشهدت جزيرة العرب فيما قبل الإسلام بعض الممالك، كمملكة معين في الألف الثانية قبل الميلاد، ومملكة سبأ الشهيرة والتي امتدت حضارتها في الفترة من ٩٥٠ إلى ١١٥ قبل الميلاد، وقد شهدت بلاد العرب الشمالية إمارتين تابعتين هما إمارة العبيدة (جنوب الكوفة) وإمارة الفساسنة.

كما شهد تاريخ العرب قبل الإسلام مدنا زاهرة كمكة والمدينة والطائف وكان عرب الجاهلية في غالبيتهم على الوثنية، مع وجود أقليات مسيحية ويهودية وصابئة<sup>(١)</sup>.

## بعض الأحداث الهامة في التاريخ القديم :

### ١ - اخناتون ودعوة التوحيد الأولي على ضفاف النيل :

كان التوحيد والتفكير في الإله الواحد هو الشغل الشاغل لأخناتون أو أمنحوتب الرابع (١٣٧٥ - ١٣٥٨ قبل الميلاد) لقد انقطع اخناتون للتأمل، ولم يكن راضيا بحال عن تعدد الآلهة في مصر، واستغرق هذا الملك في التأمل الفلسفي، رغم أبهة الملك، وزينة المال والولد، ومتعة الزوجة رائعة الجمال نفرتيتي، يستدعي التوقف والتأمل طويلا.

(١) حسن، على إبراهيم: التاريخ الإسلامي العام - القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٧٧ ص ٢٨ - ١٦٨.

لقد كان المصريون إلى أيام أخناتون يعبون آلهة عدة على رأسها آمون رب الأرياب. وكان معبد آمون الرئيسي في طيبة عاصمة مصر.

لكن أخناتون راح يناجي إلهها هو «خالق كل شيء» وهو الذي يجعل «الكتكوت يصيص في بيضته» وجعل أخناتون الشمس رمزاً لهذا الإله. لكن كهنة آمون أبوا عليه ذلك، لذلك نقل أخناتون عاصمة بلاده من طيبة وبني له عاصمة جديدة في تل العمارنة أسماها أخيتاتون، وكما يحدث في كل حركات الإصلاح الديني، عمد أخناتون إلى محو الآثار التي تشير إلى اسم آمون، حتى تلك التي نقشها أبوه. لقد كانت دعوة أخناتون صريحة للتوحيد ونادي بالإخاء البشري، لكن الكهنة أضعوا دعوتهم وعبدوا الأصنام من جديد وخرّبوا عاصمته بعد وفاته ١٣٥٨ قبل الميلاد.

٢ - ومن أهم الأحداث في التاريخ القديم، والتي لعبت دوراً هاماً وأساسياً في تاريخ أوروبا، بل والمعتقد المسيحي، اجتماع نيقية سنة ٣٢٥ للميلاد والذي عرف باسم مجمع نيقية<sup>(١)</sup> المسكوني، وهو أهم المجمع الكنسي على الإطلاق.

لقد عقد هذا المجمع بعد أن استشرت الفوضى العقائدية بين المسيحيين. فوضى وخرافات تمس جوهر العقيدة وطبيعة الإله. هل المسيح إله أم ابن الله، هل هو بشر رسول أم إله؟ أم يجمع بين الإلهية والبشرية؟ الأبد أن يتهود الإنسان قبل أن يتمسح؟ وكيف التوفيق بين كون الإله أباً وأبناً وروحاً قدساً وهو في نفس الآن واحد؟

من هنا انقسمت الكنائس لمذاهب شتى، ووضعت كل كنيسة قانون إيمان جعلت الخارج عنه كافراً، ومن هنا أتت أهمية مجمع نيقية المسكوني، والمسكوني صفة تعني أنه ضم ممثلين عن كل الكنائس المسيحية، أو ممثلين من كل المسكونة أي الأرض. ولم يخرج مجمع نيقية بإجماع الآراء، وإنما كانت طبيعة المسيح مسألة اقتراح أو انتخاب أو استفتاء.

لقد عقد مجمع نيقية بإيحاء من السلطة الزمنية (الامبراطور قسطنطين). لقد كان الامبراطور يريد لامبراطوريته أن تستقر ويخشى أن تتحول الخلافات الدينية إلى خلافات

(١) نيقية في آسيا الصغرى على بحيرة إسكانيا، وكانت قريبة من المقر الإمبراطوري الصقلي.

سياسية «فلم يكن اعترافه بالمسيحية وتأييده لها سوى مظهر من مظاهر السياسة المدنية لتثبيت أركان امبراطوريته».

وكان أهم انشقاق في الكنيسة، هو ذلك الانشقاق الذي تسبب فيه أكليركي تابع لأبرشية الاسكندرية اسمه أريوس خالف الأسقف السكندري الكبير (اسكندر) وقد كان من رأي أريوس أن المسيح عليه السلام بشر وأنه مخلوق وأنه لا تكليث، فإله واحد لا يتجزأ وأن المسيح ليس من معدن إلهي «فمن كان مخلوقا فهو في مرتبة ثانية بعد الخالق، وأن المسيح عليه السلام ليس أزليا فقد أتى حين من الدهر لم يكن له وجود، أما الله سبحانه وتعالى فلا قبل له ولا بعد.

لاحظ عزيزي القارئ - أن تلك نفسها هي نظرة الإسلام للمسيح، نادى بها أريوس قبل البعثة المحمدية بأكثر من ثلاثمائة سنة.

وقد لخص أريوس معتقده في نقاط:

١ - كان زمن لم يكن فيه للمسيح وجود، أو قبل أن يولد لم يكن.

٢ - خلق من جوهر لم يكن موجودا من قبل (أي خلق من العدم).

٣ - خلق من جوهر يتميز عن جوهر الله (إنه ليس الله)

٤ - إنه مخلوق.

تم ذكر أريوس في أحد خطابه «لا نرتد عن إيماننا هذا ولو هددونا بألف ميتة شنيعة» وظل الرجل شديد الإيمان بمعتقده حتى مماته.

لقد أصبح الانشقاق في الكنيسة المسيحية - خاصة أقوال أريوس وأتباعه - خطرا على المسيحية، وكاد هذا الانشقاق اللبني يهدد الوحدة السياسية للامبراطورية الرومانية، فبعث الامبراطور رسائله إلى الاسكندرية يطلب من الأساقفة الكف عن الجدل فلم تجد رسائله فتىلا، فدعا أساقفة الكنيسة في أوروبا وأفريقيا وآسيا إلى الاجتماع في نيقية، فحضر ٣١٨ أسقفا تقريبا ومع كل منهم حاشية من مريديه، ووضع قسطنطين القصر الإمبراطوري تحت تصرف المجمع. وانقسم المجتمعون إلى فئات ثلاث:

أولا ، جماعة أريوس، وكانوا أقلية نشطة وكان على رأسها أحد أتباع أريوس.

ثانيا ، خصوم أريوس وعلى رأسهم اسكندر أسقف الإسكندرية.

ثالثاً ، فئة وسط حائرة لا تؤمن بعقيدة أريوس ولا بتزمت كنيسة الإسكندرية تهدف إلى تحقيق رغبة الامبراطور والتوفيق بين المتخاصمين. وعلى رأسهم يوسيبوس وهو مؤرخ كنسي وعرف باسم القيصري نسبة إلى قيصرية في فلسطين .

وقدم الأريوسيون (قانون إيمان) ينص على المعتقدات التي سبق أن أشرنا إليها، فأثار غضب جماعة اسكندر، فقدم يوسيبوس وأعوانه (قانونا وسطا) وتماطف الامبراطور مع هذا (الوسط) ولما وجد أن عددا كبيرا من الأساقفة لا يروقهم هذا القانون طلب تعديله، وبعد التعديل طرح فحاز على أصوات الأغلبية وإن رفضته تماما جماعة أريوس، لكن الإمبراطور وقعها وأصبح ذلك هو قانون الإيمان الرسمي، ونص هذا القانون على (لُعَن) أتباع أريوس الذين تعرضوا بعد ذلك لاضطهادات شديدة<sup>(١)</sup>.

### (٣) التواريخ الوسيط أو العصور الوسطى:

وتبدأ تقريبا من سنة ٣٩٥ وهو العام الذي انقسمت فيه الامبراطورية الرومانية إلى قسمين كما سبق أن أشرنا عند الحديث عن التاريخ القديم أو ٤٧٦ وقد سبق مناقشة هذا التاريخ كحد زمني لنهاية العصر القديم. ويمكن القول إجمالاً ان القرن الرابع للميلاد هو البداية المعقولة للعصر الوسيط. أما عن نهاية العصر الوسيط وبداية الحديث فهناك جمهرة كبيرة من المؤرخين تعتبر سنة ١٤٥٢ وهي سنة سقوط القسطنطينية على يد الفاتح التركي محمد الفاتح أساسا للتحديد، وإن كان هناك تواريخ أخرى لا تخلو من دلالة مثل سنة ١٤٥٠ حيث اخترع جوتنبرج الطباعة فكان حقا وصدقا فاتحة نشر الثقافة المبنية على الكلمة ويسر للناس سبل الثقافة أو ١٤٩٢ حيث اكتشف كولبس القارة الأمريكية وحيث بداية خروج المسلمون من أسبانيا أو ١٤٩٤ باعتباره عام التنسيق بين المسيحية على يد البابا فلم تتصارع قواها لفترة من الزمن إذ توسط البابا لعقد اتفاق بين أسبانيا والبرتغال تمثله معاهدة تورديسيلاس<sup>(٢)</sup> Tordosillac وإن كان هذا التاريخ الأخير لا يصلح مرتكزاً في الواقع لتحديد نهاية عصر وبداية آخر لسبب بسيط وهو أن هذا الاتفاق بين القوى المسيحية ما لبث أن تفجر بعد ذلك.

(١) فريضة لثيس : دراسات في التاريخ، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٨٠ ص ٣٢٨ - ٢٥٠.

(٢) طرخان إبراهيم طي : مدخل إلى علم التاريخ، مذكرة على الاستقلال ص ٤١.

وهناك بعض المؤرخين والباحثين الأسبان يرون أنه من الأجدر اعتبار سنة ١٤١٥ بداية العصور الحديثة لأن القوى الأيبيرية دحرت المسلمين في الأندلس ولم يبق منهم إلا كيان هش، وأن القوى المسيحية استطاعت أن تتبع المسلمين في الشمال الأفريقي فاستولت على سبته في ذلك التاريخ «ففي ٢٥ يوليو عام ١٤١٥ غادرت ميناء لشبونة قوة برتغالية ضخمة على ظهر أسطول من ٢٤٠ سفينة وحرصت البرتغال على إخفاء وجهة هذه الحملة حتى وصلت سفنها إلى ميناء سبته المغربي الذي فوجيء بهذا الغزو ودخل الغزاة المدينة... لذا يقول الضابط البرتغالي فاسكودي كرافياو: «إن هذا الحدث الخطير والعظيم أجدر بأن يعتبر بداية للعصور الحديثة من أن يتخذ سقوط القسطنطينية في يد المسلمين ١٤٥٢ بداية لها»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن هذا الرأي طرح في مناخ يتوقع فيه العالم المسيحي إزالة العالم الإسلامي واقتلاع جنوره.

ومهما يكن من أمر، فإن اختلاف هذه التواريخ أمر يسير فكلها في القرن الخامس عشر ويصرف النظر عن الرأي المتعصب الذي طالب باعتبار ١٤١٥ نهاية للعصور الوسطى وبداية للحديثة فإن باقي التواريخ في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

### أهم الأحداث التاريخية التي صبغت التاريخ الوسيط بصبغتها: بعثة الرسول عليه السلام وهجرته والفتوح الإسلامية

ولد الهدى سنة ٥٧٠ للميلاد تقريباً، وتلقى الوحي سنة ٦١٠ وجره بدعوته سنة ٦١٢ فتعرض لاضطهاد شديد فوجه بعض صحبه للحبشة سنة ٦١٥ وفي سنة ٦٢٢ هاجر للمدينة، فكان لهذه الهجرة آثار عظيمة في تاريخ الدعوة. كثيرة هي الكتابات عن الهجرة، وليس هنا مجال تفصيل أحداثها، لكن يهمنا أن نقول إنه منذ الهجرة، والإسلام في تقدم مستمر، لقد كان فتح مكة سنة ٦٣٠، وتوفي الداعي الرسول (ص) سنة ٦٣٢ ومن يومها لم يحدث طوال مراحل التاريخ أن تقلصت خريطة العالم الإسلامي أو اعتري المعتنقين له نقص في العدد، حتى في أحلك فترات الضعف.

(١) الجمل، شوقي عطائه : المغرب العربي في العصر الحديث ص ٤٤.

١ - طبيعة الإسلام نفسه هي العامل الأساسي في رسم خريطة العالم الاسلامي منذ أن كان الإسلام وحتى اليوم، وطبيعة الإسلام نفسه بالإضافة إلى جهود المسلمين هي التي ستحدد اتساع هذه الخريطة وامتدادها في مستقبل الأيام.

ونقصد بطبيعة الإسلام انه يمين دعوة أنزل للناس كافة أو بتعبير آخر أنه دين عالمي النزعة.

ومثل هذه الكلمات تتكرر كثيراً لدرجة أن كثيرين منا باتوا لا يعرفون ما تتطوي عليه هذه الكلمات من أفكار ومن أحاسيس أيضاً. لذلك فإن الأمثلة والشواهد تعيد إلى أذهاننا الخصوصية وتجعل أفكارا جديدة تثبتق في عقولنا وفي قلوبنا.

إن المسلم - وكذلك النصراني - يسعد سعادة كبيرة عندما يرى شخصا يتحول إلى دينه؟ فماذا تعني هذه السعادة؟ إنك كمسلم تعتقد أنك على حق، وتعتقد أن معتقدك أو دينك هو الصحيح وأنه سيؤدي بك إلى حياة أخروية سعيدة مع الحور العين وعلى ضفاف أنهار من خمر ولبن وعسل مصفى ومعنى أنك تسعد أو تفرح عند دخول غير المسلم في دينك إنك ترحب به شريكا في هذا النعيم! والمسلم لا يكتفي بالترحيب بمن يدخل في دينه بل هو يسعى إلى ذلك أو هو يدعوه أو يبذل قصاري جهده لإقناعه بدخول الدين الحق. ألا يدل هذا على طيبة قلب وعلى سلامة طوية، وعلى فكر زاخر بحب الناس كافة؟ ورب قائل إن كل الأديان على هذا النحو والإجابة قورا : كلا، فاليهودي يعتقد أن اليهودية قصر عليه كجنس أو شعب، لذلك فهو لا يرحب بك لو أردت دخول دينه، ولا يدعوك إليه. إن الله هو ربه فقط فيما يرى، واليهودية دين وجنس معا، إنها مقتصرة عليهم. ونفس الشيء بالنسبة للبرهمية والزرادشتية مع فارق بسيط وهو أن البراهمة والزرادشتيين لا يدعون أصولا عرقية واحدة، لهذا فهي أديان منقرضة بالضرورة إذا انقرض الجنس أو اعتري المعتقدن الحاليين فناء أو عقم أو وباء. أو على أحسن تقدير إنها أديان في تناقص مستمر.

٢ - أما الإسلام فلم يحدث منذ أن كان إسلاما أن اعتري المعتقدن له نقص عددي.. إنه في زيادة مستمرة حتى في أكثر المراحل التي مر بها المسلمون صعوبة وشدة. وتلك حقيقة سنشير لها في أكثر من موضع في هذه الدراسة، وهذا يرجع كما سبق القول إلى أنه عالمي النزعة، وقد ظهرت هذه العالمية لا في نصوص القرآن الكريم فحسب وإنما في الوقائع التاريخية ومنذ بداية

عهد الإسلام فقد كان من بين صحابة الرسول الأوائل ممثلون لكل أجناس البشر فقد كان هناك صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي أما الجنس الحامي فهو مختلط بالجنس السامي منذ البداية، لذا فأم إبراهيم (مارية القبطية) قد تكون حامية وقد تكون سامية وأم العرب هاجر قد تكون حامية وقد تكون سامية وقد تكون الدماء الحامية والسامية تجري في عروقتها معا.

يبين أن كل هذا ليس صدفة وإنما هي وقائع تاريخية تؤكد عالمية الدعوة.

٢ - ثم أننا نلاحظ أن توجيهات الرسول ومراسلاته الباكرة كأنها كانت ترسم الطرق التي سارت فيها الفتوح والدعوة بعد ذلك. ففي سنة ٦١٥ أي قبل الهجرة بسنوات سبع هاجر بعض المسلمين للحبشة، وهو نفس الطريق الذي سلكه الإسلام لشرق القارة الأفريقية بعد ذلك وأرسل الرسول (ص) خطايا للمقوقس حاكم مصر الذي أهداه مارية القبطية، وعن طريق مصر انتشر الإسلام في المغرب بعد ذلك وسار صعدا في وادي النيل وأرسل الرسول (ص) خطايا له رقل قيصر الروم وكسري فارس وحاكم اليمن.. وكل هذه المراسلات كانت سنة ٦٢٨ م أو حوالي السنة السادسة للهجرة.

لو تتبعنا حركة انتشار الإسلام بعد ذلك لوجدناها تتبع نفس الخطوط أو التوجيهات فقد خرج الإسلام من الجزيرة وانتشر في آسيا وأفريقيا وأوروبا. ففي أفريقيا دخل الإسلام عن طريقين أساسيين هما: مصر والبحر الأحمر أو مضيق باب المندب. وفي آسيا اتخذ الإسلام طريق الشام (الروم) ثم العراق وفارس وفي الطرف الغربي للقارة الأفريقية حمل البربر ومعهم العرب مهمة نشر الإسلام شمالا للأندلس وصقلية وجنوبا عبر الصحراء الكبرى إلى أفريقيا الزنجية. أما طريق البحر الأحمر أو باب المندب فقد انتقل عن طريقه الإسلام إلى الحبشة وكينيا وتنزانيا أو شرق القارة الأفريقية بل وتغلغل إلى أعالي الكونغو، وأعالي النيل (أوغندا) وسواحل البحر الأحمر الغربية (ارتريا وجيبوتي وشرق السودان) والتي هذا الجهد مع الجهد الآتي من النيل الأدنى صاعدا إلى السودان، ذلك الجهد الآتي من مصر.

ولم يتوقف خط انتشار الإسلام المتجه شرقا عبر آسيا عند حدود إيران بل لقد وقف قتيبه

بن مسلم الباهلي على أبواب الصين يدق بابها ويدخل الإسلام الصين وكان الرقم المعلن عن عدد المسلمين في الصين سنة ١٩١٠ هـ ٨٠ مليون مسلم. وحمل الأتراك الآسيويون فكرة الإسلام إلى آسيا الصغرى وإلى عمق القارة الأوروبية بل ودق الأتراك العثمانيون أبواب فيينا.

وهذه الخطوط التي سار فيها الإسلام لم تكن مفاجأة وإنما كانت تسبقها إرهابات تاريخية سبق أن أشرنا إليها. إرهابات يمكن أن نصفها بأنها إعجاز تاريخي.

إرهاب تاريخي آخر يمر علينا نون أن نتنبه له. لقد حدد الرسول عليه السلام مواعيت للإحرام للحج، فحدد الجحفة أو رابغ ميقاتا مكانيا لأهل مصر وما يليها غربا وذات عرق (شمال شرق مكة) ميقاتا لأهل العراق وما يليها، وقرن المنازل (بالقرب من السيل) ميقاتا لأهل نجد وما يليها شرقا. ويلعلم (جبل جنوب مكة) ميقاتا لأهل اليمن. أما ميقات أهل المدينة فذبي الحليفة (آبار على). لقد كان الرسول على وعى تاريخي كامل بأن كل تلك الأنحاء ستسلم وستدخل في دين الله أفواجا، وإلا كيف نفسر تحديد هذه المواعيت مع أن الرسول (ص) قد توفي سنة ٦٢٢م أو سنة ١٠ هـ ولم تكن الشام أو مصر أو العراق ولا ما وراء ذلك كله قد فتحت أو انتشر فيها الإسلام انتشاراً جماهيرياً، ألا يدخل ذلك في باب الإعجاز التاريخي<sup>(١)</sup>؟

\* \* \*

ذكرنا فيما سبق إلمامة يسيرة عن طبيعة الإسلام وأثره في رسم خريطة انتشاره. كما ذكرنا إلمامة يسيرة عن الإرهابات الثابتة تاريخياً عن انتشار الإسلام وامتداده. وما نحب أن نؤكد هنا أن خريطة توزيع المسلمين الآن لم تصل لمرحلة الثبات النهائي وإنما ما زال الإسلام قابلاً للانتشار وعلى نطاق واسع، فإذا كان الجغرافيون يقولون إن الإسلام ينتشر الآن (١٩٨٢) ما بين خطى عرض ٩٠ شمالاً و٦ جنوباً تقريباً، أو ما بين نهر روفوما (الحد الفاصل ما بين تنزانيا وموزمبيق) جنوباً وأعلى نهر الفولجا شمالاً، وما بين خطى طول ١٢٠ شرقاً و١٨ غرباً أو أقصى شرق أنونيسيا إلى أقصى الساحل الغربي في أفريقيا الغربية أو ما يسمى بطن

(١) الشيخ، عبد الرحمن عبدالله: خريطة العالم الإسلامي من منظور تاريخي جديد. مقال نشر في جريدة السياسة (الهدف) الكويت ١٩٨٢/١١/٥.

أفريقيا، إذا كان هذا هو التوزيع الحالي التقريبي - بالإضافة للأقليات الإسلامية في أوروبا والأمريكيتين وأستراليا - فإن إمكانات الانتشار الإسلامي المستقبلي قائمة وبغير حدود، وسنضرب لذلك بعض الأمثلة:

( أ ) الوثنيون باختلاف فئاتهم في القارة الأفريقية والذين يطلق على معتقداتهم مسميات شتى مثل Paganism أو Fetishism أو Animism وهذا المصطلح الأخير يترجم بالأرواحية - هؤلاء يعتبرون رهيبيدا مستقبلياً للإسلام. ويلاحظ أن إسلام فرد واحد له وضعية اجتماعية في هذه المناطق الوثنية ومكن أن يجر للإسلام قبيلة أو شعباً بأكمله. آخر هؤلاء عمر بونجو رئيس الجابون وقد اعتنق الإسلام في إثره كثيرون. وتشاد ليست دولة إسلامية فحسب وإنما هي على شفا عروية والوثنيون في جنوبها يمكن تحويلهم للإسلام بسهولة، وأفريقيا الوسطى ووثنيوغابات الكونغو ورواندا وبوروندي وغير ذلك.

(ب) وفيما كان يسمى الاتحاد السوفييتي وما زال المسلمون على معتقدتهم ويحصلون أسماهم الإسلامية رغم كل شيء، وفي الصين سحقت المسيحية، ورغم كل محاولات سحق الإسلام فما زال المسلمون موجودين وقد زار صحفي عربي الصين سنة ١٩٨٠ ووجد أن الصينيين المسلمين ما يزالون يمتنعون عن أكل لحم الخنزير وأن لهم مطاعم يقال لها المطاعم الإسلامية لا يطبخ فيها إلا ما أحل الله.

وهناك فكرة أساسية أريد تأكيدها هنا وهي أن تفرغ الناس من معتقداتهم اللبينية المسيحية والبودية وغيرها في الدول التي تتخذ موقفاً مناهضاً للدين... هذا التفرغ هو في النهاية لصالح المعتقد الإسلامي. لقد كان اللادينيين أو الوثنيون من الناحية التاريخية أسرع تقبلاً للإسلام من غيرهم. فقد انتشر الإسلام انتشار النار في الهشيم بين البربر وانتشار الإسلام المذهل بين المغول رغم انتصاراتهم العسكرية يجعل المؤرخ يقف متأملاً...

لذلك فالباحث يتوقع أنه بمجرد سقوط الأنظمة اللادينية وسقوطها العسكرية أو تحللها أو ظهور الفكرة المضادة على حد تعبير هيجل فإن الإسلام سيجد نفسه أمام أقوام ليس لديهم أي أرضية روحية فيكون تقبلهم له - أي للإسلام - سريعاً..

(ج) أما في أوروبا فنحن جميعا نعرف أن شرق القارة الأوروبية زاخر بأقليات إسلامية قوية بل إن دولة باكملها مثل البانيا على البحر الأديراتي تعتق الإسلام رغم فرض المعتقد اللادينى. ولقد كان انتشار الإسلام في أوروبا الغربية هذه الأيام مرتبطا بنمو الحركات الإلحادية أو اللادينية أو الحركات الراضة للحضارة الحديثة.

(د) وفي الأمريكتين جماعات إسلامية مهاجرة وكان اعتناق الزنوج الأمريكين للإسلام رغبة منهم في الرجوع إلى أصولهم الزنجية وإلى دين آبائهم كما قال بعضهم، كما كان رد فعل ضد التفرقة العنصرية إلى جانب المزايا الذاتية للإسلام.

وملاحظة أخرى على خريطة الإسلام وهي أنه لم يحدث أبدا طوال مراحل التاريخ أن تقلصت هذه الخريطة أو نقصت، بل هي طوال مراحل التاريخ وحتى الآن في ازدياد واتساع. وقد يكون هذا من قبيل الوجد الدينى أو المبالغة ولكنها في الواقع حقيقة تاريخية، حتى في مراحل الانهزام العسكري كان الإسلام أيضا ينتشر وتتسع رقعته إما باعتماد الغزاة الإسلام وإما بتعويض تاريخي مزامن لا نجد له تفسيراً إلا عناية الله. وهناك أمثلة عديدة على ذلك.

فمنذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد والوجود الإسلامي في تقهقر واضح في شبه جزيرة أيبيريا أو الأندلس، ففي ١٠٨٥ سقطت طليطلة في يد نصاري الجزيرة بمعاونة الفرنجة، وفي نفس الفترة تقريبا كان ألب أرسلان السلجوقي (١٠٦٣ - ١٠٧٢) يطرد البيزنطيين من معظم آسيا الصغرى، وطوال هذه الفترة وما بعدها كان الأتراك يهاجرون غربا إلى آسيا الصغرى بالذات متبعين آثار السلاجقة أبناء عمومته. ومن الطرف الآخر للعالم الإسلامي سقطت قرطبة سنة ١٢٣٦ ثم استمر الزحف المسيحي فسقطت أشبيلية سنة ١٢٤٨. لقد بدأ الإسلام في أيبيريا أو الطرف الغربي للعالم الإسلامي مضعضا على وشك الانهيار وفي سنة ١٤٠٣ سقطت القسطنطينية في يد المسلمين الأتراك العثمانيين وفزعت أوروبا كلها واستدارت تاركة الانتصارات المسيحية في أيبيريا لتواجه نكسات وهزائم أخطر عقب سقوط القسطنطينية. إن الإسلام من هذا الباب القسطنطيني صار أقرب لقب أوروبا من جبل الوريد.

توازن! توازن غريب، لبحث فلاسفة التاريخ عن تفسير له، توازن مدهش! وسقطت آخر القلاع الإسلامية في الأندلس وهي غرناطة سنة ١٤٩٢ بينما كان الإسلام متمركزا في شرق

أوروبا بل وكان في مرحلة بعث وانتشار. وفي أوروبا اليوم دولة إسلامية يزيد عند المسلمين فيها على ٩٨٪ وهي ألبانيا، لكننا أضحينا لا نعرف عنها إلا قليلا منذ غمرها الحكم الشيوعي.

وهكذا لم تنقص مساحة العالم الإسلامي ولا نقص عدد المسلمين أثناء المد المسيحي في الأندلس وأثناء تفكك العالم الإسلامي. ورغم التعصب الشرس الذي تعرض له المسلمون في الأندلس لدرجة أن المراجع تذكر أن أكثر من ثلاثة ملايين مسلم قد جرى قتلهم أو طردهم من أسبانيا حتى بداية القرن السابع عشر بفرض أن تكون أسبانيا واحة النين بمعنى ألا توجد بها ديانة أخرى غير المسيحية.

نضرب مثالا آخر بمرحلة تاريخية بدا فيها الإسلام وكأنه يحتضر ونعني بها فترة الهجوم التتري أو المغولي على العالم الإسلامي وسقطت بغداد عاصمة الخلافة على يد هولاكو ١٢٥٦م واجتاح المغول في طريقهم قبل بغداد المناطق المحيطة ببحر الخزر (قزوين) وبحيرة خوارزم (بحر آرال) وضموا كل مناطق وسط آسيا والتي تعرف باسم بلاد ما وراء النهر Trans oxania ووصلوا جنوبا حتى ما بعد مر خيبر وكانت سيطرتهم تمتد إلى كاشغر شرقا (ضمن الصين الآن) وصين الصين أي عمق الصين، وكان الإسلام أثناء الهجمة التتريّة، دينا موجودا في كل هذه المناطق، وقويا ومحترما بل لقد كان في صفوف التتار أنفسهم أعداد من المسلمين وصلوا لدرجة الوزارة وتولوا حكم بعض الولايات، بل لقد كان بركة التتري أو المغولي منافس هولاكو على العرش مسلما. ولقد تولى بركة التتري المسلم حكم منطقة واسعة عرفت بالأورد الذهبي في الفترة من ١٢٥٧ إلى ١٢٦٦ وتولى مباركشاه التتري المسلم حكم خانية آل جغتاي بصفة غير رسمية قبل ١٢٦٦ وفي نفس العام عين حاكما رسميا على المنطقة، ومباركشاه هذا هو الحفيد الثالث لجنكيز خان.

والواقع أننا مدينون بكثير من التفاصيل عن تاريخ الإسلام في هذه الفترة في شرق بغداد وحتى الصين لكتاب المستشرق الروسي يارتولد (١٨٦٩ - ١٩٣٠) والذي ترجم للعربية سنة ١٩٨١ تحت عنوان تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. وتكفي هنا هذه الإشارات الموجزة حتى لا يخرج البحث عن هدفه. المهم أن هذا الغزو المغولي رغم أنه أسقط عاصمة الخلافة العباسية وجمد الحركة الفكرية في العالم الإسلامي لفترة إلا أن هناك نتائج أخرى هامة

انبثقت عنه كانت بالتأكيد لصالح خريطة العالم الإسلامي، وإصالح زيادة عدد الداخلين فيه  
نجزها على النحو التالي:

(أ) قضى المغول تماما على عصابة الحشاشين الاسماعيلية التي أسسها الحسن بن الصباح سنة ١٠٩٠ شمال فارس وسوريا وقد ظلت قلاع هذه الطائفة ومبانيها تثير الرعب في العالم الإسلامي. ولم يقمع هذا الإرهاب نهائيا إلا بعد قضاء المغول على هذه الحركة الإسماعيلية في القرن الثالث عشر للميلاد ولم يعد لشيخ الجبل وجود.

(ب) كان الصراع المذهبي البغيض والصراع القبلي أيضا بين العرب في خوارزم وبلاد ما وراء النهر عاملا مضعفا للإسلام وقد لقن المغول هؤلاء المتصارعين درسا قاسيا لم يعيشوا بعده ليدركوه وإن كان أبنائهم وأحفادهم قد أدركوه يقينا. ولم يكن المغول أصحاب عقيدة ينشرونها لذلك لم يجبروا أحدا على اعتناق وثيتهم الشامانية، بل إن المغول - قبل غزو بغداد - كانوا في الغالب الأعم يميلون للمسلمين أكثر من ميلهم للبونيين والمسيحيين رغم جهود اتباع الديانتين لتشرهما.

(ج) أما بعد غزو بغداد وهزيمة المغول على يد مماليك مصر فإن ما حدث يدعو للتوقف طويلا، ولنقرأ معا ما كتبه روم لانود وهو ما يدرسه لطلبة التاريخ في جامعة المحيط الهادي بكاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية: «وبعد أن غزا المغول سوريا ليصدهم عنها سلطان المماليك بيبرس، وطلوا أقدامهم في فارس والعراق وأنصرفوا إلى تعمير الأرض التي كانوا قد خربوها دون رحمة، والواقع أن هذا التغيير المدهش الذي طرأ على سياسة المغول إنما هو ثمرة من ثمار نفوذ الإسلام المدين المرسخ، فبعد أن احتل المغول الامبراطورية الإسلامية وجنوا أنفسهم في وضع كالوضع الذي جابهه كثير من المنتصرين قبلهم: لقد خضعوا لدين ضحاياهم وثقافتهم».

وهكذا أدى الغزو المغولي لإسلام المغول أنفسهم وتوثيق عري الإسلام وتعميقه في وسط  
آسيا وترسيخ أقدامه حتى حدود الصين بل وكان تدعيما للإسلام في الصين نفسها.

وهكذا زاد عدد المسلمين واتسعت رقعة العالم الإسلامي ولم تنقص<sup>(١)</sup>

(١) الشيخ، عبد الرحمن عبدالله: خريطة العالم الاسلامي من منظور جديد. الطعة الثانية، مقال نشر في جريدة السواسية (الهدف) الكويت، ١٩٨٢/١١/١٢.

## ٣ - التاريخ الحديث:

منذ انتهى العصر الوسيط يبدأ العصر الحديث مع فترة أنتقالية بينهما تضاف لرصيد التاريخ الحديث هي ما يطلق عليها عصر النهضة Renaissance.

ومازلنا نعيش جميعا هذا العصر، لكن الأحداث المعاصرة أو الموجودة الآن غالبا ما لا تكون موضوعا للدراسات الأكاديمية في التاريخ لأنه كما سبق القول يتعين على الباحث التاريخي الأكاديمي ألا يختار موضوعا لبعثه إلا إذا توفر لديه جانب مهم من الوثائق ولقد جرى العرف في نور الوثائق ألا يفرج عنها أو تكون مشاعا بين أيدي الباحثين إلا بعد خمسين سنة على الأقل، كما أن مرور فترة زمنية معقولة يجعل أبعاد الموضوع تتضح ويجعل الباحث أكثر قدرة على الحياد.

ويبدأ العصر الحديث باجماع عدد كبير من المؤرخين منذ سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣. ذلك الحدث الرهيب الذي قرعت من أجله الكنائس أجراسها. وبداية التاريخ الحديث بهذا الحدث الديني الضخم، يدفع الدعوى القائلة بأن الدين لم يعد محركا للأحداث في العصر الحديث، فواقع الأمر أن الإسلام يشكل عاملا من عوامل الحقد التاريخي ضد العرب والمسلمين، ولقد كان لطبيعة فتح القسطنطينية ما يؤكد ذلك. وأحداث التاريخ، كما نؤكد للمرة الألف، لا تموت وإنما هي في الضمائر والقلوب والشعور واللاشعور، تؤثر في الإنسان والحضارة، وتحرك المشاعر واعية وغير واعية.

لقد ظهر الجيش العثماني أمام أسوار القسطنطينية تحوطه دعوات العلماء وابتهالاتهم، وكانت الروح الدينية غالبية على الجند الذين كانوا يعتقدون أنهم يؤمنون واجبا مقدسا، ولقد كانت المعارك تبدأ بصلاة السلطان، وكان الجيش كله يصلي، ورفض الامبراطور البيزنطي التسليم أكثر من مرة مما دعا محمد الفاتح السلطان الشاب (٢٢ سنة) إلى التوجه بجيشه قائلًا: لقد وقفت هذه المدينة أعواما طويلا في وجه الإسلام وتحالفت مع أعدائه.. لذلك فهي مباحة لكم.. وبعد يوم واحد كانت المدينة في أيدي المسلمين، وعندما انتصف النهار دخل محمد الفاتح المدينة يمتطي سهوة جواده واتجه إلى الكنيسة الكبيرة (أيا صوفيا) ونزل عن جواده أمام بابها وعفر رأسه بالتراب تواضعا وشكرا لله وقابله رجال الكنيسة فأمنهم، ثم أشار إلى من أذن للصلاة فأذن لأول مرة في هذه الكنيسة الفضة فضمة الرمز، ومن يومها أصبحت مسجدا من أكبر

مساجد الإسلام . لقد كان مطلع العصر الحديث هو «الله اكبر» تنوي في إحدى الكنائس أيمن أن ينسى ذلك؟ أيمن لا يكون هذا حقدا في صدور الأفراد وفي باطن الحضارة الأوروبية الحديثة؟ لا أظن. إن كان اللين قد اختفي ظاهرا أو تعمدت القوى المحركة والمؤثرة في التاريخ الحديث أن تخفيه إلا أنه كامن خلف أحداث كثيرة.

## من أهم الأحداث والسّمات الحضارية للتاريخ الحديث: نمو وسائل الاتصال، وفيض المعرفة البشرية :

نمو وسائل الاتصال، نقلا وهاتفًا وبرقا ومنياعا وتلفازًا، ووكالات أنباء وصحافة ونمو مخزون المعرفة البشرية، وتنظيم المعلومات، واكتشاف أهميتها في رسم السياسة ووضع الاستراتيجية، وتصميم الاختراعات.. كل ذلك من سمات العصر الحديث. وكل ذلك شكل حياة الانسان وصاغها وجعل فيضا من المعلومات يهبط عليه وينهال، مما يجعله حائرا حينًا، بين الحقيقة والضلال وبين الخبر الصادق، والخبر الموجه. لكن تطور وسائل الاتصال، وفيض المعلومات ليس شرا كله بطبيعة الحال، وإنما أسهمت وسائل الاتصال، وفيض المعلومات في تعميق فكر الانسان وتأصيله وتعميق تطبيقاته التكنولوجية، لقد بدأت هذه الثورة العلمية والاتصالية في القرن التاسع عشر، ثم تطورت تطورا مذهلا بعد ذلك.

ففي سنة ١٨٧٦ اخترع جراهام بل آلة التليفون محققا بذلك تكنولوجيا فكرة إرسال الصوت الانساني على مسافات بعيدة تبلغ محيط الكرة الأرضية. ونتج عن ذلك تطبيقات هائلة في مجال تكنولوجيا الاتصال وطبقت مبادئ بل العلمية في مجال الراديو والسينما والتليفزيون وآلات تسجيل الصوت.

وفي سنة ١٨٧٩ أضاء لنا أنيسون عالما، وساهم هو نفسه في تطوير وسائل الاتصال بالصورة سنة ١٨٨٩ وصناعة السينما اليوم والفيلم الذي تستخدمه - وإن تطورت جميعا على نحو أو آخر - إلا أنها جميعا في الأساس من أفكار أنيسون.

وفي سنة ١٨٩٣ تم تسيير أول سيارة بأحدى مدن ماساشوسيتس بموتور احتراق داخلي بفضل جهود تشارلز دوريا وأخيه فرانك دوريا.

وفي سنة ١٩٠١ نجح ماركوني في إرسال رسالة لاسلكية عبر الأطلنطي وحين يومها أصبح للاسلكي استخدامه في الحرب والسلم.

وفي أواخر القرن التاسع عشر أيضا كانت بحوث الأخوين رايت لتصميم طائرة تطير بسهولة وتمت هذه البحوث بنجاح سنة ١٩٠٣.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين كانت بحوث اينشتين عن النسبية تلك البحوث التي نشرت سنة ١٩٠٥ وكان لها تطبيقاتها فيما بعد.

## الكشوف الجغرافية :

وفي التاريخ الحديث، لم يعد جزء من المعمورة غير مطروق، بل لقد امتدت جهود الإنسان الكشفية إلى الفضاء.. لقد اكتشف كولومبس العالم الجديد في مطلع التاريخ الحديث سنة ١٤٩٢، تلك الفكرة التي راوبته وألهمت عليه منذ سنة ١٤٦٤، وفي التاريخ الحديث انحسرت قضية كروية الأرض عمليا عندما وصلت سفن ماجلان إلى سانلوكر جنوب شرقي أسبانيا في سبتمبر ١٥٢٢ بعد رحلة طويلة جريئة شاقة بدأت قبل ذلك بثلاث سنوات أي سنة ١٥١٩. وفي مطلع القرن العشرين وصل روبرت أنون بيرى إلى القطب الشمالي سنة ١٩٠٩ وقدم لنا معلومات كثيرة عنه. وشهد العصر الحديث اكتشاف قارة افريقيا على يد مكتشفين عظماء : سليم قبطان المصرى، سبيك، لفنجستون، بارك..... الخ<sup>(١)</sup>

## حركات الاستقلال:

شهد التاريخ الحديث حركة استعمارية قوية، كما شهد أيضا استقلال نول كثيرة، ففي الستينات من القرن العشرين حصلت معظم الدول الافريقية على استقلالها. وفي التاريخ الحديث أيضا صدر الاعلان الرسمي باستقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا وذلك في ٤ سبتمبر ١٧٧٦، وتحقق الاستقلال فعلا سنة ١٧٨١.

Nisenson, Samuel, William A. De.  
Wit. Histos 100 Greatest events. N. Y.,  
Grosset & Dunlap, 1954. P.P. 70- 110.

(١)

## إلغاء الرق والنزوح للتحريم :

بصرف النظر عن النواهج الحقيقية التي جعلت الدول الأوروبية، والولايات المتحدة فيما بعد تطالب بالغاء الرق وتحريم الإنسان من ريقة أخيه الإنسان، إلا أن هذه النزعة الإنسانية ضد الرق تعد ظاهريا على الأقل من أنبل النزعات الإنسانية في العصر الحديث.

لقد حرمت الدول الأوروبية باتفاقات بينها تجارة الرقيق منذ منتصف القرن التاسع عشر، وأصدر الرئيس الأمريكي إبراهيم لنكونان في أغسطس ١٨٦٢ إعلانا للتحريم عرف باسم وثيقة التحريم، تنص هذه الوثيقة على منع استرقاق الزنوج.

وهكذا انتهى الاسترقاق رسميا ولم تبق منه إلا بؤر يسيرة في بعض أنحاء العالم.

## بداية استغلال البترول كمصدر للطاقة استغلالاً تجارياً واسعاً :

اعتباراً من سنة ١٨٥٩ بدأ العالم يلتفت للتفاتا جديدا للبترول كمصدر من مصادر الطاقة بديلا عن الفحم والكهرباء المولدة من المساقط المائية. لقد كان أول بئر يتم استغلاله تجارياً في الولايات المتحدة قام بحفره الكولونيل انوارد بريك أما في الشرق الأوسط فكانت البداية في مصر ١٨٦٩ حيث حفر بئر بالقرب من جمصة وزاد الانتاج وأخذ الطابع التجاري سنة ١٩٠٩ ثم توالت الكشوف البترولية في إيران ١٩٠٢ وصدرت أول شحنة بترول إيرانية سنة ١٩١٢ و١٩٢٧ في العراق و١٩٣٢ في المملكة العربية السعودية وتم اكتشاف بئر هام في الدمام سنة ١٩٣٦ وكانت بدايات النفط في البحرين ١٩٣٢ واكتشف النفط الكويتي في برقان سنة ١٩٣٨ وفي نفس العام نخلت قطر عصر النفط.

## التاريخ علم حي :

التاريخ، بأعماقه الضاربة في القدم، مازال حيا بين ظهرانينا، يؤثر فينا بل ونؤثر فيه. لقد جنح بعض المثقفين للأسف إلى اعتبار التاريخ علما ميتا، وإلى اعتبار المهتمين به ممن ينحون نحواً هروبياً، متمسكين من أحداث التاريخ الماضية، ذريعة للهروب من الواقع.

وليس أدل على عدم صحة ذلك من أن الحضارة الفرعونية التي بدأت قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ما يزال يستغلها دعاة فصل مصر عن العرب، بدعوى الفرعونية، إنهم يتخونون من

أحداث ووقائع وحضارة مرت عليها هذه العهود السحيقة نريفة لينزعوا مصر من واقعها المسلم العربي. أليس هذا دليلا على أن التاريخ بين ظهرانينا حي يؤثر فينا، بل ويعمد البعض إلى تزيفه وتوجيهه غير وجهته فكأنهم يؤثرون فيه

وهل يمكن فهم الثورة الارترية (١٩٦١) دون الرجوع إلى اعتداء الحبشة على النظام الفيدرالي الذي قرره الأمم المتحدة كصيفة للاتحاد بين أرتريا والحبشة ١٩٥٠ وهل يمكن فهم الحقد الحبشي المسيحي ضد الأرتريين والمسلمين دون الرجوع إلى أوضاع المسلمين في الحبشة، أو دون الرجوع إلى أحداث الامبراطور الشهيد ليح اياسو، الامبراطور الحبشي الشرعي المسلم واعتداء فيلاسلاسي على هذه الشرعية؟

وهل يمكن فهم الهزيمة في سنة ١٩٦٧ دون معرفة مسبباتها الضاربة عمقا في التاريخ قبل ذلك بأكثر من عشر سنين؟

إن الأحداث التاريخية لا تتبثق هكذا انبثاق الفجاءة، وإنما لابد لها من مقدمات تاريخية.

بل إن بعض عصور الإحياء والتنوير، تعتمد أساسا على إحياء ثقافة قديمة، فعصر النهضة الأوروبية اعتمد من بين ما اعتمد على إحياء الآداب الكلاسيكية.. وحركة ابن عبد الوهاب كانت تعتمد أساسا على العودة بالإسلام إلى عصر نقائه الأول.. نخلص من هذا إلى حقيقتين أساسيتين:

١ - إن تقسيم التاريخ إلى عصور أو مراحل لا يعني أن كل مرحلة أو عصر يأتي ليجب أو ليلغي أو لينهي العصر السابق إلقاء لا عودة بعده، أو يقبره قبرا لا حراك بعده، وإنما التاريخ متتابع متماسك متصل بعصوره القديمة والوسيطة والحديثة، ويقرونه السابقة على الميلاد واللاحقة حتى يومنا هذا، بل ساعتنا تلك.

٢ - إن التاريخ مازال يؤثر فينا، وما زال حيا، وبالتالي فهو علم حي.

## أصاطق بلا تاريخ؟

ذهب بعض الباحثين الأوروبيين إلى أن سكان أفريقيا السوداء ليس لهم تاريخ يسبق قنوم

الاستعمار الأوروبي، وهو قول غير صحيح<sup>(١)</sup>. فعلى سبيل المثال نجد أنه قبل وصول البرتغاليين إلى خليج غانا سنة ١٤٧٨<sup>(٢)</sup>، كان للسكان الوطنيين في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم غانا، ثقافتهم الوطنية التي لم تفب لحظة حتى بعد تشريحهم للثقافة الأوروبية واندراجهم في سلم التعليم على النمط الغربي، فلقد برعت جماعات زنوج غرب أفريقية في الفنون التشكيلية، وعلى الرغم من أن فنونهم يمكن اعتبارها فنونا زنجية خالصة إلا أن التأثير الأوروبي - والبرتغالي على نحو خاص - يبدو فيها واضحا.

كما أن غرب أفريقية لم يكن منعزلاً عن التأثيرات الحضارية طوال عصور التاريخ فلقد ذهب كثير من الباحثين إلى انتقال تأثيرات حضارية فرعونية إلى غرب أفريقيا، ولقد ظل سكان غرب القارة الأفريقية يحملون هذه التأثيرات الفرعونية حتى القرن العشرين<sup>(٣)</sup>.

كانت هذه مقامة لا بد منها، ليكون لنا المبرر الكافي في الاختلاف رأياً مع ج.ل. مايرز في كتابه فجر التاريخ إذ جعل فصله الأول بعنوان: الشعوب التي لا تاريخ لها. يقول مايرز «التاريخ كله - إذن - هو سجل كفاح الانسان مع الطبيعة ومع غيره من الناس. ولكننا رأينا من قبل أنه ليست كل الأعمال التي قام بها البشر تعتبر تاريخاً - بالمعنى الضيق والشائع. وهناك شعوب.. أو بعبارة أدق هناك جماعات من الناس ليس لهم تاريخ بالمعنى المتقدم. وفي وسعنا أن نترك إبراكا لوضح ماهية التاريخ وكيفية إضفاء الصفة التاريخية على أعمال الشعوب إذا نحن ألقينا نظرة على أمثلة مستمدة من الشعوب غير ذات التاريخ. وليس علينا إلا أن نلقي نظرة على نموذج الكرة الأرضية أو على خريطة للعالم لنترك أن كل المؤرخين في الواقع قصرُوا همهم على مناطق صغيرة جداً من العالم.

إن تسعة أعمار كتب التاريخ تعني بأعمال الأمم الأوروبية والمهاجرين من أوروبا. ويعنى

بمبتم Crowder, J. West Africa under colonial rule. London, 1968. pp. 10

(١)

Davidson, B. : Old Africa rediscovered. p. 165.

(٢)

Seligman, C. : Egypt and Negro Africa PP.8-13

(٣)

shinnie, M: Ancient African Kingdoms. N.D, p.13

Church, R: West Africa. London, Longmans, 1966, p.137

(٢) مايرز، ج.ل: فجر التاريخ. ترجمة طي عزت الأنصاري. مراجعة د. عبد العزيز كامل. القاهرة. مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٦٢. ص. ١٧ - ٢١.

معظم كتب العشر الباقي بقاليم قليلة غير أوربية كمصر وأشور وبابل والهند والصين، واليابان (حديثا) وفي الوقت نفسه هناك مساحات شاسعة لم تكتب عنها أية مؤلفات تاريخية. والسبب واضح إذ ليس فيها أعمال بشرية تدعو المؤرخ إلى اتخاذها موضوعا لكتابه...»<sup>(٢)</sup>

والواقع أن هذا الكلام غير صحيح في جملته، فحيثما يوجد الانسان يوجد التاريخ. فإذا وجد الانسان، فثمة يسمي وراء بقائه حيا، وهو يحب ويكره ويخاصم ويتحالف، ويسالم ويحارب، ويبيع فنا وأدبا وصنعة.. وماذا عساه يكون التاريخ إلا هذا كله؟ العيب إذن في المؤرخين الذين اهتموا بمنطقة دون أخرى بدافع التعصب أو التعاطف أو السهولة؟ كما أن أساليب المؤرخين في كثير من الأحيان كان يعترها قصور من ندرة وثائق أو انعدامها. وصعوبة اللغات القديمة، وقسوة البيئة الجغرافية التي تحول بين المؤرخ وبين المناطق التي يبغى لها وصولا.. كل ذلك وغيره هو الذي جعل الكتابات عن بعض مناطق أفريقيا قليلة نادرة، بل ومنعمة أحيانا، بل أن بعض الجماعات البشرية لم نعرف عنها شيئا إلا في هذا القرن العشرين. كجماعات السونا في وسط أمريكا اللاتينية...

إذن، كل البشر لهم تاريخ، والمسألة أن أساليب البحث التاريخي تقصر أحيانا عن الوصول للحقيقة.

### العصر والمنهج :

مما سبق يتضح أن لكل عصر سماته الخاصة التي تغلب عليه، والتي تميزه عن غيره من العصور، إلى حد ما، رغم أن العصور التاريخية كلها تتكامل وتتصل ورغم أن التاريخ كله ينساب في مجرى واحد، فيسبىء الجريان حيننا، وينساب فيضنا حيننا آخر، ذلك أن موضوع التاريخ في كل العصور هو الإنسان وما يبذله من جهد خلاق، وما ينقل به صراعا مع الطبيعة ومع أخيه الإنسان.

كل هذا لا يمنع أن لكل عصر سمته الغالبة التي تسمه، ولكل منطقة طبيعتها التي تلون تاريخها، وتحدد العلوم المساعدة للتأريخ لها، والمنهج الذي ينتهجه الباحث عند الكتابة عنها.

فالمؤرخ لعصر صدر الإسلام، لابد أن يتعمق في طبيعة الاسلام، وتاريخ المعتقد الوثني قبل الاسلام، والمعتقد المسيحي في الجزيرة ومصادره، والمعتقد اليهودي في الجزيرة وطبيعته، وطبيعة العريسي الاثنولوجية والانثروبولوجية، فكل ذلك يعينه - أي الباحث - على رصد مدى

التأثير الإسلامي عمقاً واتساعاً. ويدعون الامام بذلك كله تأتي الكتابة التاريخية عن صدر الإسلام مسطحة هشة، ليس فيها عمق، ولا تقف أمام نقاش.

والمؤرخ للدولة البيزنطية، لا بد له من معرفة كل ما يمكن عن الجامع الكنسية عامة، ومجمع نيقية خاصة (٢٢٥ للميلاد) وطبيعة المعتد المسيحي وما كان يلم به من لجأج وخلاف وتحزب، وعلاقة هذا التحزب بالخلافات السياسية وموقف الأريوسية خاصة، والخلاف حول طبيعة المسيح عامة.

ويكاد يمتزج تاريخ مصر الفرعونية كله بالمعتد الديني، فقد كان الملك إلها، وكان التحالف بين الكهنة والملك قائماً غالباً، مفقوداً أحياناً، متخذاً شكل صراع نابراً.

إنن : في التاريخ القديم والتاريخ الوسيط، كان المعتد الديني يوجه الأحداث ويحركها أو يتخذ ذريعة لها بشكل واضح علني مكشوف.

والباحث في مجال التاريخ القديم مضطر للرجوع لنصوص بلغات قديمة ما عاد لها وجود، وما عاد أحد يتحدث بها، فقد طال عليها الأمد، فانقرضت ولم يبق منها في لغاتنا الحية إلا كلمات قد تصل للمئات، اعترها تحوير وتبديل. والباحث في مجال التاريخ القديم أمامه إزاء هذه الصعوبة واحد من اتجاهين :

أولهما : أن يعتمد الباحث أو المؤرخ اعتماداً كاملاً على ما ينشره الأثاريون أو علماء الآثار، وترجماتهم للنقوش والنصوص القديمة.

ثانيهما : أن يقوم بتعلم اللغة القديمة اللازمة لبحثه، وذلك يستغرق وقتاً طويلاً، ويتطلب حرصاً شديداً، ثم يشرع بعد ذلك في قراءة النصوص بنفسه خاصة تلك التي لم تصل إليها جهود الأثاريين.

والواقع أن مهمة الأثاري تنتهي عند نشر الأثر وتحقيق نسبه لعصره ونشر رسومه ونقوشه، وهذا لا يقلل من أهمية دور المؤرخ، الذي يقوم بكتابة تاريخ كامل من هذه الآثار مستخدماً أساليب النقد والتحليل والتصوير والتخيل فتتحول مجموعة النصوص والآثار الجافة إلى حياة تنبض، وصورة تنطق.

لكن حقيقة الأمر أن الآثاريين، والاختصاصيين في اللغات القديمة، نظرا لامتلاكهم ناصية أدوات البحث الأساسية قد زاحموا الاختصاصيين في التاريخ، فنحن نجد في أيامنا هذه أن عددا كبيرا جداً من المتخصصين والناهين في التاريخ القديم، كان اختصاصهم الأساسي في الآثار أو اللغات القديمة.

أما مؤرخو العصر الوسيط الإسلامي، فطبيعة بحوثهم تحتم أن يكون لديهم قدرة على قراءة مراجع التاريخ الإسلامي، وقد يظن الباحث أن المسألة سهلة يسيرة ما دامت هذه المراجع مكتوبة بالعربية. لكن حقيقة الأمر أن لكل عصر مصطلحاته الخاصة، ووظائفه الخاصة، بل ولغته الخاصة.. والتعود على ذلك كله في حاجة إلى إدامة النظر في هذه المراجع، حتى يألّفها وتألّفه إن صح هذا التعبير، وهذا يستلزم من الباحث كثرة الرجوع للقواميس، وتفهم لغة العصر، ومعرفة التيارات الدينية السائدة.

فإذا ما انتقلنا إلى التاريخ الحديث المسبوق بعصر النهضة، وجبنا أن معظم مؤرخي عصر النهضة نوولوع بالفن، نحتة ورسمه وأببه، ومناهج التفكير العلمي.. فتلك كانت طبيعة عصر النهضة الأوروبية، ومعرفة شيء من ذلك يتوقف عليها عمق وأصالة ما يكتبه الباحث.

أما التاريخ الحديث فقد سبق أن أشرنا إلى أهم سماته من فيض المعلومات وكثرة الإبداعات والاكتشافات العلمية واتساع نشاط وسائل الاعلام وقوى الضغط على ذهن الإنسان، وتلك لها جانبها السلبي والإيجابي أما الإيجابي فهو كثرة المعلومات والمتوفرة في كثير من الموضوعات، وأما السلبي فهو تناقض هذه المعلومات وفقا لجهات بثها أو نشرها مما يستدعي من الباحث يقظة وحذرا. ومن الضروري أن يلم الباحث بلغة الوثائق أو المراجع الخاصة بموضوعه، خاصة وأنها لغات حية تعلمها ليس بنفس صعوبة تعلم اللغات القديمة أو المنقرضة.